الفصل الثاني

فيما مضى من التاريخ

ليس من الصعب أن نذكر عشرات المقولات التي تمتلئ بالمديح لدى المعجبين والمؤرخين الذين عرضوا لحياة سيدنا محمد ﷺ بالدراسة والنقد ، وذلك بالرغم من موضوعيتهم الصارمة ، وعقولهم الجامدة الحاقدة التي كانت تجنح أحيانًا إلى شيء من التحامل الناجم عن الحقد أو سوء الفهم ، وندع ذلك كله لكي نعود إلى ما مضى من التاريخ .

لقد كان ذلك يوم الجمعة الثامن من شهر مايو عام ١٨٤٠ ، أي منذ حوالي مائة وخمسين عامًا مضت[١] ، عندما كانت أي كلمة طيبة عن محمد ﷺ تعتبر خطيئة لا تغتفر ، وعندما كان الغرب المسيحي قد طال تدريبه على أن يكره محمدًا ﷺ ، وأن يكره دينه بنفس الطريقة التي كانت تدرب بها الطلاب في موطني ، في جمهورية جنوب إفريقيا ، على أن تكره الناس ذوي البشرة السوداء . في ذلك الوقت ، قَدَّمَ «توماس كارلايل» ، وهو واحد من أعظم المفكرين في القرن الماضي ، سلسلة من المحاضرات تحت عنوان : «الأبطال وعبادة البطل» .

تطوير المرض :

واستعرض كارلايل ذلك الحكم المسبق الأعمى لدى قومه في بداية حديثه إليهم . وأشار كارلايل إلى واحد من عمالقة الأدب في الغرب وهو الأستاذ الهولندي «هوجو جرتيوس» الذي كان قد كتب مقالة مليئة بالمطاعن المريرة المفتراة ضد نبي الإسلام ﷺ . وكان «هوجو جرتيوس» قد زعم كذبًا أن النبي ﷺ كان قد درب مجموعة من الحمائم على أن تلتقط بعض حبوب

(١) حين تأليف هذا الكتاب.

البازلاء من أذنه لتعتاد الحمائم النزول فوق كتفيه ليستطيع بهذه الخدعة أن يوهم أتباعه أن الحمائم تجيء إليه بالوحي من الله ، ولم يكن الله يوحي إليه حقًا بأي شيء مما كان يكتبه محمد ﷺ بعد ذلك في القرآن زاعمًا لقومه أنه وحي أوحاه الله إليه . وربما كان «هوجو جرتيوس» قد استعار هذه الفرية على نبي الإسلام ﷺ من قراءته في كتابه المقدس قول إنجيل «متى» ، إذ يقول بالنسبة إلى المسيح عليه السلام ما يلي بالحرف الواحد : «فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء . وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتيًا عليه» .

(إنجيل متى ٣ :١٦) .

وعندما طلب شخص اسمه «باكوك» ، وكان متفتح الذهن مثل توما المتشكك (في الجملة الخامسة والعشرين من الإصحاح العشرين من إنجيل يوحنا» عندما طلب دليلاً على تدريب محمد ﷺ للحمائم أن تنزل على كتفيه لكي تلتقط الحبوب من أذنيه أجابه جروتيوس بقوله : «**لا يوجد دليل!**» .

أين الدليل على صحة الزعم ؟

إن جروتيوس بالضبط كان يشعر أنه يجب أن يخترع هذه القصة لكي يدخل السرور إلى آذان مستمعيه . كانت هذه القصة المفتراة بالنسبة إليه وإلى مستمعيه أقرب إلى الصدق من أن يكون الوحي الإلهي قد حدث فعلاً بالنسبة إلى سيدنا محمد ﷺ . ولقد كان مثل هذا الافتراء الخرافي يثقل على قلب كارلايل ويفزعه لدرجة أن أخذ يصرخ في مستمعيه قائلاً لهم بالحرف الواحد :

«**هذه الأكاذيب التي أملاها التعصب المقصود عن عمد بشأن هذا الرجل إنما هي عار وشنار علينا نحن أنفسنا ، ولا تشينه بأيّ حال من الأحوال!!**» .

النبي البطل :

لقد كان كارلايل رجلاً يتصف بالعبقرية ، ووهبه الله القدرة على النفاذ إلى حقائق الأمور ، والقدرة على توضيح تفاصيل الأفكار . ولقد كان يريد بطريقته الفذة الماهرة فى تناول الأمور أن يضع الحقائق والمعايير في وضعها الصحيح .

وخطط أن يلقي على الناس محاضرة ، واختار لتلك المحاضرة موضوعًا مثيرًا يشد الانتباه هو «البطل عندما يكون نبيًا من الأنبياء» . واختار كارلايل أن يكون البطل النبي موضوع دراسته هو محمد ﷺ وليس موسى عليه السلام أو داود أو سليمان أو المسيح عليهم السلام . إنه محمد ﷺ ؛ ولكي يرضى كارلايل غرور مواطنيه من المسيحيين الإنجليكانيين المنتمين إلى الكنيسة الإنجليكانية في إنجلترا ، اعتذر عن اختياره ذاك بقوله لهم : «وحيث إنه لا يوجد أي خطر يتمثل في أن نصبح أو يصبح أي واحد منا من أتباع الديانة المحمدية ، فأنا أعتزم أن أقول كل ما يمكن أن أقوله بحق وصدق عن مزاياه» .

وبكلمات أخرى ، كان هو ، وكان مستمعوه ، وهم من صفوة المسيحيين متحررين من خوف التحول إلى اعتناق الإسلام ، وكانوا جميعًا دون استثناء يستطيعون إزجاء بعض الأحكام المنصفة بالنسبة إلى محمد ﷺ . ولو كان عنده أي مخاوف بشأن قوة إيمانهم لما قام بهذه المخاطرة .

وفي بيئة تمتلئ عن آخرها بالكراهية والحقد نحو أي شيء إسلامي ، وبالنسبة إلى جمهور من المستمعين تسيطر عليه الشكوك والمشاعر العدوانية ، استطاع كارلايل أن يطلق سراح كثير من الحقائق المضيئة المشرقة المتصلة بالبطل الذي اختاره مثالاً لبطولة الأنبياء في مجال النبوة ، وكيفية أداء الأنبياء لرسالة السماء في شخص سيدنا محمد ﷺ . والمدح ينبغي أن لا يحرم منه من يستحق المدح . وهذا على وجه التحديد هو ما يعنيه اسم «محمد» ﷺ . إن لفظ محمد يعني بالضبط الشخص الجدير بالحمد والمدح والثناء . وهنالك مواضع في محاضرة كارلايل عن نبي الإسلام ﷺ ، وهنالك تعبيرات وردت على لسان كارلايل في هذا الصدد التي ربما لا تُرضي المسلم المفعم القلب بالإيمان بعقائد الإسلام ، ولكن الإنسان المسلم يمكن له أن يتغاضى عنها لاحتمال وجود قصور في فهم كارلايل لها خصوصًا عندما نضع في اعتبارنا أن كارلايل باجترائه على إزجاء الإعجاب والمدح لسيدنا محمد ﷺ ، فلقد كان في حقيقة الأمر يمشي فوق حبل مشدود من الحبال الثقافية . والمشي فوق حبل

ثقافي مشدود محفوف دائمًا بالمخاطر ، ولقد نجح كارلايل في المشي على ذلك الحبل الثقافي المشدود بوجه عام نجاحًا منقطع النظير .

لقد أزجى كارلايل إلى بطلنا كثيرًا من المديح المتوهج الحماسي بأسلوبه البارع العبقري ، ودافع عنه كارلايل دفاعًا مخلصًا ضد الاتهامات الزائفة وضد الافتراء الزائف الذي مارسه الغرب المسيحي لتشويه صورة النبي ﷺ تشويها لا أساس له من الصحة ، بالضبط كما فعل النبي ﷺ في دفاعه عن المسيح عليه السلام ودفاعه عن أم المسيح عليها السلام .

وفيما يلي نماذج مما قاله كارلايل حرفيًا في هذا الصدد ، قال :

أمانته وإخلاصه :

١- أ- «كانت أمانة الرجل العظيم وإخلاصه في حملها من النوع الذي لم يكن يستطيع أن يجيز فيه لنفسه أن يتحدث عنه أو يُطريه ، بل إنه على النقيض من ذلك كان كل وعيه منصرفًا إلى الحذر من أن تتسلل إلى نفسه ذرة من ذرات انعدام الأمانة ، وأي رجل ذلك الرجل الذي يستطيع أن يمشي كما ينبغي لمدة يوم واحد ، وهو يحمل فوق كتفيه مسئولية الحفاظ على شريعة الله الحقيقية؟! لا ، إن الرجل العظيم لم يكن يفاخر بنفسه أبدًا باعتبار أنه مخلص وأمين في أداء رسالته إلى الناس . وأكثر من ذلك فهو لم يسأل نفسه ما إذا كان يتصف بالأمانة والإخلاص . وأنا أميل إلى القول بأن أمانته وإخلاصه في أداء رسالته من الله إلى الناس لم ينبعا من داخل نفسه ، بل كانت أمانته وكان إخلاصه من الله وبقدرة الله وإرادته ، ولم يكن محمد ﷺ يستطيع أن يحيد عن أن يكون مخلصًا في أداء رسالته من الله إلى الناس» .

(الأبطال وعبادة البطولة - ص٥٩) .

ب- «نَفْسٌ عظيمة تؤثر الصمت . لقد كان ﷺ واحدًا من الناس الذين يستحيل أن يكون الواحد منهم غير جاد . إنه شخص قد سمت نفسه لتكون نفسًا أمينة مخلصة . وبينما يمشي الآخرون في غمار الأنماط السلوكية المألوفة بين الناس وما يشاع بين الناس من مجموع الأنماط السلوكية في الأفعال

والأقوال ، والسرور يغمر نفوسهم بذلك النوع من أنماط السلوك الشائعة بين الناس ، كان محمد ﷺ يعيش حياته منعزلاً عن الناس[1] ، متفردًا مبتعدًا بنفسه عن ممارساتهم اليومية الممجوجة الشائعة بينهم يتأمل حقائق الأمور . . . . . .

ومثل هذا الإخلاص ، كما اتفقنا على تسميته ، كان في حقيقة أمره شأنًا إلهيًا اقتضته مشيئة الله وإرادته ، ليكون صفة يتصف بها هذا النبي العظيم ﷺ . إن كلمة مثل هذا الرجل إنما هي صوت ينطلق من صميم قلب الطبيعة ذاتها . وينبغي على الإنسان أن يصغي إلى هذا الصوت وحده وأن يطيعه ، ولا يصغي ، ولا يطيع أي صوت آخر . . . . . لأن كل صوت آخر إنما هو صوت عصف الرياح لا فائدة فيه بالمقارنة بالصوت النابع من صميم قلب الطبيعة»

(الأبطال وعبادة البطولة – ص ٧١) .

وفي غضون محاضرته الطويلة ، لم تتح الفرصة بالنسبة إلى كارلايل لكي يوضح مصادر ملاحظاته التي ساقها في تفاصيل محاضرته تلك . ويجوز لي أن أقدم بين يدي القارئ الكريم حادثة من الحوادث الواقعية التي تعبر عن أعلى درجات الإخلاص والأمانة في أداء محمد ﷺ للوحي الذي أوحاه الله إليه في القرآن الكريم ، حتى لو كان ذلك الوحي الإلهي الذي أوحاه الله إليه يكشف عن سمة من سمات الضعف الإنساني ، التي عرضت في حياة النبي ﷺ وعاتبه الله عتابًا رقيقًا بشأنها .

عتاب من الله وتحذير لرسول الله ﷺ كما أنزلهما الوحي الإلهي في القرآن الكريم:

كان ذلك في الأيام الأولى من بدء رسالة النبي ﷺ ، وتبليغه رسالة ربه إلى قومه في مكة . ولقد كان محمد ﷺ منهمكًا في محاولة إقناع جماعة من

(١) لعله يريد الخلوة التي كان النبي ﷺ يخلو بنفسه فيها، ويتفكر في ملكوت الله عز وجل حتى نزل عليه الوحي .. أما بعد بدء الرسالة فلم يكن النبي ﷺ منعزلاً عن الناس، بل كان معهم يدلهم ويرشدهم لأمور دينهم ودنياهم.

زعماء مكة (بينهم أُبَيٌّ بن خلف ، وكان آنذاك زعيمًا مرموقًا) بتعاليم دعوة الإسلام ، وكان يبدو أن أحدهم (وهو أُبَيٌّ بن خلف) كان يبدي كثيرًا من الاهتمام ، ويبالغ في الاستفسار والإصغاء لما يقوله النبي ﷺ . وفي هذه الأثناء جاء رجل أعمى ، هو عبد الله ابن أم مكتوم ، يريد أن يقطع النبي ﷺ كلامه مع أعضاء ذلك الوفد من أشراف مكة ، لكي يشرح له شيئًا من كلام الله في القرآن الكريم ، ولم يرد رسول الله ﷺ بأي كلمة على عبد الله ابن أم مكتوم ، ولكنه قطب جبينه ، وبدا أنه مستاء من مقاطعة عبد الله ابن أم مكتوم لحديثه مع وفد أشراف مكة ، وكأنما كان تقطيب جبين النبي ﷺ يعني الاعتراض على عبد الله ابن أم مكتوم ناعيًا عليه عدم الصبر ، وكأنه لا يرى ولا يدرك أنه بتعجله مقاطعته حديث النبي ﷺ ربما يضيع فرصة أن يؤمن بعض أشراف مكة برسالته ﷺ . وأنا أعتقد أن أي رجل آخر من بين الخطاة أو القديسين لم يكن ليُسَاءل ، أو يعاتبه الله - سبحانه وتعالى- لمثل هذه الهَنَة الطفيفة ، ولكن لم يكن ذلك هو الشأن بالنسبة إلى محمد ﷺ . ألم يختره الله ويكرمه بتلك المنزلة الرفيعة من الخلق الكريم التي سجلها له القرآن الكريم في قوله الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم :٤)؟

عـبـس :

وبينما كان ﷺ منهمكًا في غمار مناقشته مع أشراف مشركي مكة ، أنزل الله جبريل عليه السلام ، وهو الملك المكلف بالوحي الإلهي ومعه هذا العتاب الإلهي للنبي ﷺ من أجل تلك الهنة التي سبق أن أشرنا إليها ، وتمثل ذلك العتاب الإلهي في قوله سبحانه وتعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤)﴾ (عبس :١ :٤) .

لقد كان من الطبيعي أن النبي الكريم ﷺ لم يكن يحب أن يقاطع حديثه أحد . وربما أصاب مشاعر الرجل الأعمى شيء من الأذى . ولكن النبي العظيم ﷺ ، الذي كان قلبه المفعم دائمًا بالعطف والحنو على الفقراء والبائسين ، تلقى من الله المزيد من النور الإلهي ليزداد عطفه عطفًا وحُنُوُّه حُنُوًّا على الفقراء والبائسين . ولم يأنف ، ولم يتردد ﷺ في أن يعلن إلى البشرية

جمعاء على مر الزمان ، وتوالى الأجيال ، أنه قد أخطأ دون أي قَصْد ، أو تعمد للخطأ ، إذ أعلن للناس عتاب ربه لاهتمامه بشأن عِلْية القوم من الأغنياء ، والأقوياء ، وانصراف اهتمامه عن الفقراء والضعفاء . كانت لفتة إلهية عظيمة المعنى والمغزى ، وكانت شجاعة أدبية لم تخف من اللفتة الإلهية التي أزجاها الله إليه في آيات صدر بها سورة عبس أي معنى أو أي مغزى . أعلن النبي الكريم ﷺ الآيات التي عاتبه فيها الله لخطأ طفيف لم يكن متعمدًا ، أعلنه إلى البشرية كلها ، ورجع عن الخطأ رجوعًا تامًا إذ كان يخاطب عبد الله بن أم مكتوم بعدها بقوله : مرحبًا بمن عاتبني بشأنه ربي! أيُّ تكريم للفقراء والضعفاء والمساكين أقوى من هذا التكريم الإلهي؟! وأيُّ صراحة أقوى من هذا الصدق النبوي! وعندما كان النبي ﷺ يغادر المدينة لشأن مّا ، كان يستخلف هذا الرجل ، عبد الله ابن أم مكتوم ليكون هو حاكم المدينة المنورة . وحدث ذلك مرتين وليس مرة واحدة . هكذا كان إخلاص وأمانة البطل النبي الذي اختاره كارلايل موضوعًا لدراسته ، وهكذا كان صدقه ، وهكذا كانت أمانته .

وفـاؤه :

٢- كان وفاؤه ﷺ وفاءً لا تَحُدُّهُ حدود ..... ﷺ لم ينس أبدًا زوجته الطيبة الكريمة الأخلاق ، خديجة . فبعد وفاتها - رضى الله عنها- بوقت طويل ، سألته زوجته الشابة «عائشة» ، وكانت امرأة تشعر بمكانتها المتميزة بين نساء النبي ﷺ ، سألته يومًا قائلة له : ألست أنا الآن أفضل من خديجة؟ . لقد كانت أرملة تقدم بها العمر ، وكانت قد فقدت رونق شبابها . ألست تحبني أنا أكثر مما كنت تحبها؟ فقال لها : «لا ، والله . لقد آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وآوتني إذ رفضني الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، ورُزِقْتُ منها الولد[1] وحُرِمتموه منِّي» .

(الأبطال وعبادة البطولة ص ٧٦) .

---

(١) حرصنا على عدم التغيير في رد النبي ﷺ على سؤال السيدة عائشة - رضى الله عنها- وفقًا للمراجع الإسلامية، نزولاً على مقتضيات الترجمة عن مؤلف غربي، وإن كان المعنى واحدًا في الحالتين . (المترجم).

لقد كان التغلب على وسوسة الشيطان أكثر سهولة من التغلب على رغبة زوجة شابة جميلة بالغة الذكاء مثل السيدة عائشة - رضى الله عنها- بنت أبي بكر الصديق في الحصول على الإطراء من زوجها . ولم لا يسمعها زوجها شيئًا من الإطراء الرقيق الذي يرضي غرورها؟ إن هذا الإطراء لا ضرر فيه لأي شخص على قيد الحياة حتى روح أم المؤمنين السيدة خديجة - رضى الله عنها- ربما كانت تسامح مثل هذا الإطراء . ولا يوجد أي خداع في مثل هذه الأكذوبة في حال حدوثها . ولكن حادثة وقعت بالفعل تدل على عبقرية هذا الرجل العظيم ، والنبي الصادق الأمين ﷺ ، لكي تتجلى واضحة المعالم ، تلمحها كل العيون لكل البشر بعد أربعة عشر قرنًا من حدوثها . . . . . إنه الصدق . إنه الاعتراف بالجميل لواحدة من أمهات المؤمنين ، بل هي أُولى أمهات المؤمنين ، السيدة خديجة - رضى الله عنها .

الأمين :

٣- أ- «محمد ﷺ هو رجل الحق والأمانة والصدق . كان صادقًا فيما يفعل ، وكان صادقًا فيما يقول ، وكان صادقًا فيما يعتقد . وكان أتباعه يلاحظون دائمًا أن لكلامه قيمة ومعنى ومغزى . وكان رجلاً متحفظًا فيما يقول ، وكان يصمت عندما لا يكون هنالك ما يستحق الكلام ، ولكنه كان ألمعيًا ، موفقًا في تناول موضوع الكلام عندما يلزم الكلام ، وكان حكيمًا فيما يقوله ، وكان مخلصًا كل الإخلاص ، وعندما كان يتحدث بالفعل كان يسلط الضوء على المسألة التي يتحدث عنها بالتحديد» .

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة - ص ٦٩) .

ب- «ولقد كان من الطبيعي أن يثير محمد ﷺ حفيظة وغضب وحنق أفراد قبيلته ، قبيلة قريش ، حُرَّاسِ الكعبة وسدنة الأصنام ، وقد انضم إليه رجل من ذوي الثراء والنفوذ أو رجلان .

لقد انتشرت دعوته إلى الدين الإسلامي ببطء ، ولكن دعوته كانت تنتشر ،

وكان من الطبيعي أن يثير انتشار دعوته حفيظة وغضب وحنق كثير من أبناء قبيلته» .

(كتاب : الأبطال وعبادة البطولة- ص ٧٧) .

جـ- «لم يكن محمد ﷺ مرائيًا منافقًا . لقد كان ﷺ يصارح قومه دائمًا بالحقائق ، ولو كانت الحقائق بالغة المرارة أو الصعوبة . لم يكن يقلل من شأن الأمور غير الهينة! ولقد كانت «غزوة تبوك» من الغزوات التي حظيت بكثير من اهتمامه [1] (لأنها كانت ضد جيوش الروم في جنوب فلسطين) . لقد رفض كثير من أتباعه أن يشتركوا معه في السير إلى تلك المعركة ، وتعللوا في تقاعدهم عن السير معه بشدة حرارة الجو في ذلك الصيف ، وتعللوا بالحاجة إلى جني محصول حدائقهم ، وتعللوا بغير ذلك من المعاذير . ولم ينس لهم النبي ﷺ ذلك ، وقال لهم : حصادكم! إنه لا يستغرق يومًا . وماذا سيبقى لكم من حصاد يوم القيامة؟ وتقولون : إن الجو شديد الحرارة؟ إنه كان شديد الحرارة ، ولكن نار جهنم ستكون أشد حرارة! ويقول المنافقون : ربما تهب العواصف والأعاصير ، فيقول لهم : «لن يطول بقاؤكم» .

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة-ص٩٥-٩٦) .

ولنتذكر أن توماس كارلايل كان قد قال مثل هذا الكلام ، وقال كلمات أكثر من ذلك لجمهور من المستمعين المسيحيين الذين دُهِشوا مما كان يقوله لهم عن نبي الإسلام محمد ﷺ ، وعن دين الإسلام منذ أكثر من مائة وخمسين سنة . ولم يذكر لنا التاريخ شيئًا عن المناقشات الحامية الوطيس ، والمناظرات التي كان من الطبيعي أن تكون محاضرته تلك قد تسببت فيها . ولقد أوفى توماس كارلايل بالعهد الذي عاهد نفسه عليه عندما قال : «أنا أعتزم أن أقول كل ما يمكن لي أن أقوله بحق وبصدق عن مزاياه» . واستمر كارلايل في حديثه لكي

---

(١) كانت غزوة تبوك في رجب سنة ٩هـ (أكتوبر سنة ٦٣٠م)، وسميت غزوة العسرة لشدة الحر وعموم القحط. تخلف عن السير معه ﷺ كثير من المنافقين، ولكن النبي ﷺ وصل إلى تبوك ودخلها دون قتال وكان معه ٣٠,٠٠٠مقاتل و ١٠,٠٠٠من الخيل. وأقام النبي ﷺ في تبوك عشرين ليلة يصلى بها ركعتين، وفرض الجزية على أهلها. (المترجم).

يدفع وينفي عن محمد ﷺ كل الاتهامات الزائفة ، وكل افتراء ، وكل الأكاذيب التي أذاعها الأعداء الألداء الذين ناصبوا محمدًا ﷺ دون وجه حق ألد الخصام والعداء .

تهمة الزيف :

٤- أ- يقول [١] توماسل كارلايل :

«هل قام رَجُلٌ مُزَيَّف بتأسيس دين زائف غير صادر عن الله سبحانه وتعالى؟ ما هذا الزيف في الاتهام! الرجل المزيف لا يستطيع أن يبني بيتًا من الطوب والحجارة! ولو لم يكن البنَّاءُ يعرف ويتبع بكل دقة وصرامة كل ما يلزم معرفته واتباعه من شئون الخرسانة المسلحة والصلصال المحروق ، وحديد التسليح ، وكل الطرق السليمة للبناء وهندسة المعمار ، فهو لن يستطيع أن يبني بيتًا ، بل سيصنع كومة من «الزبالة» ، ولن يستمر بقاء هذه الكومة من «الزبالة» لمدة اثنى عشر قرنًا من الزمان ، ولكي يأوي إليها [٢] مائة وثمانون مليون مسلم . إن مثل هذا البناء الذي قام دون مراعاة الأسس الصحيحة للبناء سيتهاوى وينهار على الفور . الغش لا يدوم إخفاؤه ، والكذب سرعان ما يظهر بهتانه!

إن ذلك يشبه إلى حد كبير الورقة المالية الزائفة . يتداولها المزيفون والمخدوعون بين أيديهم غير الحاذقة ، ولكن أناسًا آخرين لديهم الحذق الذي يمكنهم من اكتشاف زيفها . تشتعل الحرائق عندما يوجد في الطبيعة ما يحتم اشتعال الحرائق . والثورة الفرنسية وما شابهها من الثورات قد أثبتت بوضوح صحة الحقيقة القائلة بأن الأوراق الزائفة يستحيل على الدوام إخفاء تزييفها» .

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة - ص ٥٨) .

---

(١) كان ذلك إبان حياة توماس كارلايل، ولقد مضى على ظهور الإسلام الآن أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان . (المترجم).

(٢) أصبح عدد المسلمين لا يقل عن ألف مليون مسلم الآن . ولا يعقل أن يعتنق ألف مليون مسلم دينًا زائفًا.

ب- «وتتصادم وتتناقض مع نظرية الاتهام بالدجل والشعوذة والاحتيال على عقول العرب المتخلفين السذج حقيقة أنه ﷺ قد عاش طوال حياته الفريدة المثال ، حياة هادئة وادعة كل الهدوء والوداعة ، حتى آخر عمره ، إذ توفاه الله وفاة طبيعية ، وانتقل بكل هدوء ووداعة وصفاء ونقاء إلى الرفيق الأعلى . ولقد كان ﷺ في الأربعين من عمره ، قبل أن يتكلم بكلمة واحدة عن رسالة السماء إليه . . . . . وكان «كل طموحه» فيما يبدو ينحصر في أن يعيش حياة فاضلة ، وكانت «سمعته بين قومه» تنحصر في أنه كان يحظى بالسمعة الطيبة ، بين كل الناس الذين عاشوا بالقرب منه وعرفوه عن كثب . . . . . » .

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة ص٧٠) .

جـ- هل هو الطموح؟ وماذا كانت تعني شبه الجزيرة العربية كلها من أدناها إلى أقصاها بالنسبة إلى هذا الرجل؟ إنها كمٌّ مُهْمَلٌ لا يكاد يُذْكر بالنسبة إلى تاج الإمبراطور الروماني هرقل ، أو بالنسبة إلى عرش كسرى الفارسي . بل ما هي قيمة كل تيجان الملوك على وجه الأرض بالنسبة إلى عظمة هذا الرجل؟ وماذا كانت كل تيجان الملوك تجديه وهو يشيد مجد عظمته؟ عظمة هذا الرجل كانت مستمدة من السماء ، وكانت هذه التيجان تتلألأ فوق جحيم الأرض . وأين ستكون هذه التيجان ، وأين يكون من يضعونها فوق رءوسهم بعد قليل من السنوات؟ وما هي قيمة أن يكون ملكًا في مدينة مكة أو أن يكون الإنسان ملكًا فوق عرش شبه الجزيرة العربية كلها يمسك بيده صولجانًا لا يزيد على أن يكون قطعة من الخشب؟ هل يتمثل في ذلك خلاص النفوس من الخطايا والآثام البشرية ، إنني أعتقد بكل حسم أن مثل ذلك الصولجان لا يحقق أي خلاص للنفوس من الخطايا والآثام البشرية . إننا سنترك وراءنا الصولجان وكل ما يمثله الصولجان من مظاهر السلطة الدنيوية وزخارفها ، وقد تجردنا بعد الوفاة منها كلها دفعة واحدة .

إن اتهام محمد ﷺ باعتبار أنه كان رجلاً يحاول تحقيق طموح شخصي دنيوي على أساس من رغبة جامحة في الحصول على سلطات الملك

الدنيوي ، إنما هو اتهام عارٍ تمامًا من الصحة ، لدرجة أنه لا يحتاج إلى مجرد البحث والمناقشة بشأنه من جانبنا .

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة - ص٧٢-٧٣) .

تهمة اقتراف الخطايا والآثام :

٥- خطايا وآثام؟ هل اقترف محمد ﷺ من الخطايا والآثام ما يحط من شأنه ، ويجعله غير جدير بعظمة وعصمة الأنبياء والمرسلين؟ إن من الضروري أن أقول : إن أعظم الخطايا والآثام إنما يتمثل في عدم الدراية ، وعدم القدرة على تحديد معنى الخطيئة ، أو معنى الإثم ، والعمل الأثيم . وأنا أعتقد أن أولئك الذين أتيحت لهم فرصة قراءة العهد القديم ، والعهد الجديد من الإنجيل ، كان الأحرى بهم أن يعرفوا من قراءة كتابهم المقدس : مَنْ مِنَ الأنبياء قد ارتكب الخطايا والآثام في حق الرب؟ إن داود النبي الملك العبراني - وفْقًا لما يرويه عنه الكتاب المقدس- [1] كان قد اقترف ما يكفي من الخطايا والآثام ليكون أكبر الخطاة الآثمين ! ولم يرتكب محمد ﷺ أي خطيئة أو أي عمل أثيم ، ويحاول منتقدوه «بغير حق» أن يسخروا منه قائلين : هل هذا هو نبي الإسلام؟ لقد كان يتبع شهواته الجنسية إشباعًا لفحولته ولتمكن الشهوة منه! وهذه سخرية لا مسوغ لها أبدًا من وجهة نظري . إنها تهمة ضحلة لا أساس لها من الصحة . ما الخطايا وما هي تفاصيل الحياة في المسلك الظاهر للإنسان عندما نفحص محتواها في حقيقة أمرها ، وعندما يكون الندم والرجوع عن الخطأ قد أزالا أي آثار للخطأ ، بفضل التوبة الصادقة ، فينطوي الخطأ في ثنايا الصفح والعفو والنسيان؟ إن الخطيئة لا تلتصق بالإنسان الذي يمشي بخطواته فوق الأرض ، إذا كان قد عقد العزم أن يمشي في طريقه المستقيم . أليس الصفح والغفران من شأن الله؟! إن أكبر الخطايا فيما أعتقد

---

(١) يلاحظ المؤلف في ملاحظة بالهامش السفلي ص ٢٧ أن هذا هو التصور اليهودي والمسيحي لأنبياء الله، إذ يتهمونهم بالزنا وبالقتل والتآمر من أجل القتل وفقًا لما يرويه عنهم الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى. أما القرآن الكريم فهو يؤكد عصمة الأنبياء جميعًا عليهم السلام ويبرأ بهم أن يكون أي نبي أو رسول منهم قد ارتكب أي خطيئة. وشتان بين موقف وموقف . (المترجم).

هو الغرور الناجم عن الاعتقاد الخاطئ بأن الإنسان لا يخطئ كما لو كان معصومًا تمامًا من الخطأ . إن هذا الاعتقاد بالعصمة من الخطأ لا يتحقق إلا بالوفاة ، والقلب الذي يخلو من الإخلاص والتواضع والاعتراف بالحقائق إنما هو قلب ميت . إن القلب عندما يكون ميتًا يكون نقيًا نقاء حبات الرمال الجافة الميتة .

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة - ص٦١) .

تهمة السيف:

تلك هي أكبر الجرائم! إن أعظم خطايا محمد ﷺ في عيون الغرب المسيحي هي أنه لم يرتض أن يُذْبح أو أن «يُصْلَبَ» على يد أعدائه . لقد دافع بكل شجاعة ، وبكل مهارة ، وبكل اقتدار ، دافع عن نفسه ، وعن أسرته ، وعن أتباعه ، وتغلب في النهاية على كل أعدائه ، وقهر عدوانهم .

إن نجاح محمد ﷺ في ذلك هو الغصة في حلق خصومه في الغرب الذين حاولوا دون جدوى ، أن يجعلوا مزاياه الحقيقية عيوبًا مشينة . إنه في نظرهم لم يكن يؤمن بقداسة التضحية بنفسه ، من أجل أن يُغْتَفَرَ للبشر خطاياهم ، ومن أجل أن يتحقق للخطاة من البشر أسهل خلاص مما يستحقونه من عقاب جزاءً وفاقًا لخطاياهم وذنوبهم . لقد كان ﷺ يفكر ويتصرف على نحو طبيعي معقول ومقبول .

ويقول «جيبون» في كتابه عن اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية : «من الطبيعي ، ونزولاً على مقتضيات قانون الطبيعة التي لا جدال فيها ، أن لكل شخص الحق في أن يدافع عن نفسه ، وأن يدافع عن ممتلكاته ، وأن تصل مقتضيات دفاعه عن نفسه ، إلى كل الآفاق المعقولة ، التي توفر له الأمن والقدرة على رد [1] الأعداء عن موطنه» .

---

(١) ذلك هو ما يمكن أن نطلق عليه تسمية . «الوحدة الاستراتيجية لأرض الوطن» بمعنى امتداد أرض الوطن حتى تصل إلى حدود طبيعية يمكن الدفاع عنها بسهولة. ولم يكن من المعقول مثلاً أن يكتفي المسلمون بالبقاء في شبه الجزيرة العربية دون أن يسيطروا على كل منطقة الشرق الأوسط . (المترجم).

إن نضال محمد ﷺ وانتصاره على جيوش أعدائه قد جعلت محرري دائرة المعارف البريطانية يعلنون أن محمدًا ﷺ هو :

«أعظم الشخصيات الدينية نجاحًا في التاريخ» .

كيف يحتُّ إذَنْ لخصوم الإسلام أن يعتبروا أن انتصارات محمد ﷺ لم يكن لها أي هدف ، أو أي قيمة سوى أنها قد أتاحت له أن ينشر دينه الإسلامي اعتمادًا على السيف ، وغلبة الجيوش والرماح ، وغير ذلك من أنواع السلاح؟ . . هل فرض محمد ﷺ الإسلام على رقاب الناس بأن قطع رقابهم؟ .

٦- أ- يقول دولاسي أوليري ما نصه : «إن التاريخ يؤكد ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أن خرافة الاجتياح البربري لمساحات شاسعة من الأراضي ، وإجبار الناس على الدخول في الإسلام بقوة السلاح ، فوق رقاب الشعوب المغلوبة على أمرها ، إنما هي خرافة خيالية مضحكة ، عارية تمامًا من الصحة ، وبعيدة كل البعد عن الحقيقة على نحو نادر المثال في دنيا التاريخ وفي عالم المؤرخين» .

(دولاسي أوليري- كتاب الإسلام في مفترق الطرق - لندن ١٩٢٣ص٨) .

وأنت - أيها القارئ الكريم - لست بحاجة إلى أن تكون مؤرخًا مثل «أوليري» لكي تعرف أن المسلمين كانوا قد حكموا إسبانيا لمدة ٧٣٦عامًا . ولقد كانت أطول مدة حكم فيها المسيحيون المسلمين هي ٥٠٠سنة في موزمبيق ، وهي بلد تم للمسيحيين انتزاعه عن حاكم عربي مسلم هو «موسى بن بايق» وهو اسم عربي لم يستطيعوا أن ينطقوه النطق الصحيح . ولا يزال المسلمون يمثلون ٦٠٪ من سكان موزمبيق على الرغم من مرور خمسة قرون من حكم المسيحيين لذلك البلد .

وعلى كل حال ، بعد قرابة ثمانية قرون تم إقصاء وإبعاد المسلمين عن إسبانيا بحيث لم يبق فيها مسلم واحد يقيم الأذان معلنا وجوب صلاة من الصلوات الخمس المفروضة على المسلمين في اليوم الواحد ، ولو كان المسلمون قد استخدموا القوة عسكريًا واقتصاديًا في إسبانيا ، لما بقى فوق أرض إسبانيا أي

مسيحي ليقوم بطرد المسلمين منها . ربما يجوز أن يصف الإنسان - لو شاء - المسلمين بأنهم قد استفادوا من خبرات وثروات البلاد ، التي كانوا قد فتحوها ، ولكن يستحيل أن يتهمهم أحد بأنهم قد استخدموا السيف ، لكي يحوِّلوا الإسبانيين إلى مسلمين ، يعتنقون الدين الإسلامي ، خوفًا من سيوف المسلمين .

واليوم لا يزال الإسلام ينتشر في كل أنحاء العالم دون أن يكون لدى المسلمين سيوف!!

ولقد كان المسلمون أيضًا هم سادة الهند لمدة ألف عام ، ولكن حدث عندما نالت شبه القارة الهندية استقلالها في عام ١٩٤٧ ، أن حصل الهندوس على ثلاثة أرباع مساحة الهند ، وحصل المسلمون على ربع المساحة فقط .

لماذا حدث ذلك؟ لقد حدث ذلك لأن المسلمين خلال ألف عام من سيطرتهم على أراضي الهند لم يجبروا الهندوس على اعتناق الدين الإسلامي اعتمادًا على حد السيف . ولم يفعل المسلمون هذه الفعلة على الإطلاق في إسبانيا ولا في الهند ، ولم يكن السبب في ذلك هو مجرد التحلي بفضائل الأخلاق فحسب ، ولكن كان ذلك نزولاً على مقتضيات أمر إلهي موجود في القرآن الكريم إذ يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ (البقرة : ٢٥٦) .

● **ولقد أدرك المسلمون المنتصرون ، وأيقنوا بموجب هذا الأمر الإلهي أن** [1] **«الإكراه» لم يكن يتسق مع الدين الصحيح للأسباب الآتية :**

أ- يعتمد الدين الصحيح على الإيمان والإرادة ، وسيفقد الإيمان وستفقد الإرادة كل معنى ، لو تم فرض الدين على الناس بالقوة الغاشمة . القوة الغاشمة يجوز لها أن تهزم وتقهر ، ولكنه يستحيل عليها أن تكون كافية ليتحول إنسان بحق من دين إلى دين .

(١) لا ريب على الإطلاق أن الله عز وجل لو شاء أن يكون كل البشر مؤمنين به لكان ذلك. ولكن حقائق الإيمان تضيع كلها لو لم يكن وجود الكفر ممكنًا بين البشر. ولقد قضت مشيئة الله أن يعبده الناس طواعية واختيارًا وليس قهرًا وإجبارًا . (المترجم).

ب- الحقُّ والباطلُ ، والرُّشْد والغَيُّ ، والهُدَى والضلالُ قد تم توضيح كل منها بفضل الله ورحمته ، لدرجة أنه لم يبق أي ريب ، أو أي شك في عقل أي إنسان يخلص النية في التوجه الصحيح نحو حقائق أسس الإيمان .

جـ- رعاية الله وعنايته مستمرة ، متصلة بالبشر ، وقد اقتضت مشيئته أن يرشدنا في غياهب الظلام ويأخذ بأيدينا إلى الهدى والإيمان ، دون حاجة إلى قهر أو إجبار .

وفيما عدا بعض الممارسات القليلة الخاطئة هنا أو هناك ، نجد أن المسلمين عمومًا قد امتثلوا للأمر الإلهي في كل الأراضي التي خضعت لفتوحات المسلمين .

● **ولكن ، ماذا يمكن أن يقول الخصوم على أقطار لم يضع فيها جندي مسلم مسلح قدميه على الإطلاق ؟**

أ- **إندونيسيا** : الحقيقة هي أن أكثر من مائة مليون إندونيسي إنما هم من المسلمين ، وبالرغم من ذلك لم تطأ أقدام أي جيش للمسلمين الأرض في أكثر من ألفي جزيرة في إندونيسيا .

ب- **ماليزيا** : الغالبية العظمى من سكان ماليزيا من المسلمين ، ومع ذلك لم تطأ قدم جندي مسلم واحد أراضي ماليزيا .

جـ- **إفريقيا** : أغلبية الناس الذين يعيشون فوق أراضي السواحل الشرقية في إفريقيا حتى موزمبيق إنما هم من المسلمين ، وفوق أراضي السواحل الغربية في إفريقيا أيضًا نجد أن أغلبية السكان من المسلمين ، ولكن التاريخ لم يسجل أي غزوات للمسلمين في هذه الأقطار الإفريقية ، جاءت إليها من أي مكان . ما السيف؟ أين كان السيف؟! لقد قام التاجر المسلم بإنجاز كل المهمة . إن سلوكه الطيب والتزامه الأخلاق الحميدة في المعاملة مع الناس قد حقق معجزة انتشار الإسلام بين الناس في تلك الأقطار .

ورغم كل هذا قال لي ضيفي المسيحي وهو يحاورني : «كل ما تقوله يبدو أنه من المستحيل نقضه ومعارضته يا سيد ديدات ، ولكننا نتحدث عن الإسلام في

بداية الدعوة ، ونتحدث عن الطريقة التي استطاع بها نبيكم محمد ﷺ أن يجعل الوثنيين يتحولون إلى الإيمان برسالته ، واعتناق دينه ، كيف فعلها إن لم يكن قد فعلها اعتمادًا على السيف؟ .

واحد ضد الجميع ؟

وإزاء هذا التساؤل ، لا نستطيع أن نفعل ما هو أفضل من أن ندع توماس كارلايل نفسه يدافع عن بطله النبي المختار ، لدحض هذا الاتهام الزائف ، بأن الإسلام في أول عهده قد انتشر بين العرب اعتمادًا على السيف . وفي هذا الصدد يقول توماس كارلايل :

٧- «إنه السيف فعلاً : ولكن أين؟ وفي أي جانب يوجد السيف؟! إن كل رأي جديد ، في بدايته يكون بطبيعة الحال منحصرًا في أقلية ، إنما هي أقل الأقليات في عدد أفرادها ، إذ إن الرأي الجديد لا يقول به في البداية إلا شخص واحد ، يكون الرأي الجديد موجودًا في رأسه هو وحده ، دون غيره من الناس . وهنالك ، في رأس هذا الشخص الوحيد يولد الرأي الجديد ، ويصدق بصحته . يوجد رجل واحد في مواجهة كل الرجال . وعندما يمسك هذا الرجل الواحد بالسيف ويحاول أن ينشر رأيه بقوة السيف بين الناس فهو لن يحصل من جراء امتشاق السيف على أي نفع يحقق هدفه . وأنت يجب أولاً أن تشرع السيف! . ونحن لا نجد أن الدين المسيحي قد نبذ السيف على مدار تاريخه عندما استطاع أتباع الدين المسيحي الحصول على السيف . ولم يتمكن شارلمان من تحويل الساكسونيين إلى اعتناق المسيحية بمجرد التبشير النظري القائم على أساس من الإقناع وحده» .

(كتاب الأبطال وعبادة البطولة- ص ٨٠) .

في سِنِّ الأربعين عندما أعلن محمد ﷺ عن رسالة السماء إلى الأرض ، لم يكن هنالك حزب سياسي ، ولم يكن ذلك في نطاق دولة ملكية النظام ، ولم تكن هنالك أسرة حاكمة ، أو قبيلة مسيطرة تسانده في دعوته إلى الدين الذي أعلن عنه . وكان قومه الذين ظهر بينهم وهم العرب متورطين في عبادة

الأصنام ، ويسيطر على عقولهم الكهان والمشعوذون . ولم يكونوا شعبًا سهل الانقياد بأي حال من الأحوال ، إذ كانت السيطرة عليهم مستحيلة المنال . ولم تكن لحومهم طرية . وكانوا شعبًا متقلب الأهواء ، مشتت المذاهب والآراء ، لا تنقطع الحروب والغارات الانتقامية المضادة بين قبائله المتنافرة متقلبين تقلبًا وحشيًا بين مختلف أنماط الولاء والتبعية كما وصفهم كارلايل . ورجل واحد ، يضرب بيده يستطيع أن يُوَحِّدَ مثل هذا الشعب القبائلي المتنافر في نسيج واحد وأمة واحدة؟! إن ذلك يحتاج إلى معجزة .

ولقد حدثت بالفعل المعجزة . لقد كان الله وحده هو القادر على أن يجعل محمدًا ﷺ منتصرًا نصرًا مبينًا على طول الخط ، رغم قلة الأعوان والأنصار وكثرة الأعداء ، وضخامة الأخطار ، مصداقًا لقول الله - سبحانه وتعالى - لسيدنا محمد ﷺ في القرآن الكريم : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح :٤) .